البحر المديد

في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة

١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق

أحمد عبدالله القرشي رسلان

المجلد الأول

من أول سورة الفاتحة حتى آخر سورة النساء

قدم له

أ . د/ جودة محمد أبو اليزيد المهدى

عميد كلية القرآن الكريم بطنطا

طبع على نفقة د . حسن عباس زكي

القاهرة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩ م

الصادق في الطلب من الكاذب، فإنّ محبة الله مقرونة بالبلاء، وليتخذ منهم شهداء إن ماتوا على ذلك، كالحلاج وغيره، أو يتخذ منهم شهداء الملكوت إن صبروا حتى ظفروا بالشهود. (والله لا يحب الظالمين) أي: المؤذين لأوليائه، بل يمقتهم ويبعدهم.

(وليمحص الله الذين آمنوا) بطريق الخصوص، أي: يخلصهم من بقايا الحس، سلط عليهم الناس، وليَمحق المنكرين عليهم بما يصيبهم من إيذايتهم، فإن المنكر على أهل النسبة كمن يدخل يده في الغيران(١) ، فإذا سلم من الأول والثاني، قال: لا يلحقني منهم شيء، فإذا أدخل يده في غار آخر لدغته حية فأهلكته.

أم حسبتم يامعشر المريدين أن تدخلوا جنة المعارف، ولما يعلم الله الذين جاهدوا نفوسهم، ويعلم الصابرين على إيذاية من آذاهم، ولقد كنتم تمنون موت نفوسكم وتطلبون ما يعينكم على موتها من قبل أن تلقوا الجلال، فقد رأيتموه وعاينتموه وأنتم تنظرون ما أصاب الأولياء غيركم، فما لكم تجزعون منه وتفرون من مواطنه؟. وكان شيخ شيوخنا رضي الله عنه يقول: العجب كل العجب، ممن يطلب معرفة الله، فإذا تعرف إليه أنكره.

وفي الحِكَم: «إذا فتح الله لك وجهة من التعرف فلا تبال معها، وإن قلّ عملك، فإنه ما فتحها إلا وهو يريد أن يتعرف إليك فيها، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك، والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك؟». وبالله التوفيق.

ثم وبّخهم على ما وقع لهم من الفشل، حين سمعوا بموت النبي ﷺ ، فقال:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ
عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾
وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

قلت : (كتابا): مصدر، أي: كتب الموت كتابا مؤجلا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ يصيبه ما أصابهم، ﴿قد﴾ مضت ﴿من قبله الرسل﴾، فسيمضي كما مضوا بالموت أو القتل، ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ بعد تقرر شريعته

---

(١) الغيران: جمع غار، ويجمع أيضا على أغوار.

وظهور براهينه، عاتبهم على تقدير أن لو صار منهم انقلاب لو مات ﷺ أو قتل، أو على ما صدر من بعض المنافقين وهم ساكتون.

قال أصحاب المغازي: خرج النبي ﷺ حتى نزل بالشعب من أُحُد، في سبعمائة رجل، وأمَّر عبدَ الله بنَ جبيرٍ على الرماة، وهم خمسون رجلا، وقال: انضحوا عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، لا تبرحوا مكانكم؛ كانت لنا أو علينا، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتُّم مكانكم، فجاءت قريش، وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة، ومعهم النساء. ثم انتشب القتال فقال عليه الصلاة والسلام : «مَنْ يأخذ هذا السيف بحقه»؟ فجاء رجال فمنعهم، حتى جاء أبو دُجانة، فقال: وما حقه يارسول الله؟ قال: «تضرب به العدو حتى ينحني»، وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، فأخذه واعتم بعمامة حمراء، وجعل يتبختر بين الصفين، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنها لمشيةٌ يبغضها الله إلاّ في هذا الموضع».

ثم حمل النبيُّ ﷺ وأصحابُه على المشركين فهزموهم، قال الزبير: (فرأيت هنداً وصواحبها هارباتٍ مصعدات في الجبل)، فلما نظر الرماة إلى القوم قد انكشفوا، قالوا: الغنيمة الغنيمة فقال لهم بعضهم: لا تتركوا أمر النبي ﷺ فلم يلتفتوا، وانطلق عامتهم، فلما رأى خالد قلة الرماة، صاح في خيله من المشركين، ثم حمل على أصحاب النبي ﷺ من خلفهم، وقتل عبد الله بن جبير، واختلط الناس، فقتل بعضُهم بعضاً، ورمى عبدُ الله بن قمئة الحارثي رسولَ الله ﷺ بحجر، فكسر أنفه ورباعيته، وشجَّه في وجهه، وكسر البيضة[1] على رأسه، فذبَّ عنه مصعبُ بن عمير، وكان صاحب الراية، فقتله ابن قمئة وهو يرى أنه قتل النبي ﷺ، فرجع إلى قومه، وقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخ: ألا إنَّ محمداً قد مات. وقيل: إنه الشيطان، فانكفأ الناس، وجعل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام – يدعو: «إليَّ عباد الله»، فانحاز إليه ثلاثون من الصحابة، وضموه حتى كشفوا عنه المشركين، وأصيبت يد طلحة بن عبيد الله فيبست، حين وقَى بها النبي ﷺ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان، حتى وقعت على وجنتيه، فردها النبي ﷺ مكانها، فعادت أحسن مما كانت.

وفشا في الناس أن رسول الله ﷺ مات ـ فقال بعض المسلمين: ليت ابنَ أُبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان. وقال بعض المنافقين: لو كان نبيا ما قتل، ارجعوا إلى دينكم الأول. فقال أنس بن النضر ـ عمُّ أنس بن مالك: (إن كان قد قتل محمدٌ فإنَّ رب محمد لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، حتى تموتوا على ما مات عليه). ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء. يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني الكفار، ثم شدَّ سيفه وقاتل حتى قُتل، رحمة الله عليه.

---

(١) البيضة : الخوذة.

فأنزل فيما قال المنافقون: ﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾ بارتداده ﴿فلن يضر الله شيئا﴾ وإنما يضر نفسه، ﴿وسيجزى الله الشاكرين﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه، كأنس وأضرابه، ﴿وما كان﴾ ينبغي ﴿لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ أي: بإرادته ومشيئته، أو بإذنه لملكٍ في قبض روحه، والمعنى: أنّ لكل نفس أجلاً مسمى في علمه تعالى وقضائه، لا تستأخر عنه ساعة ولا تستقدم، بالتأخر عن القتال ولا بالإقدام عليه، وفيه تشجيعهم على القتال ووعد للرسول بحفظه وتأخر أجله؛ فإن الله تعالى كتب أجل الموت ﴿كتابا مؤجلا﴾، مؤقتاً لا يتقدم ولا يتأخر.

ونزل في الرماة الذين خالفوا المركز للغنيمة: ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤتها منها﴾ الجزاء الجليل، ﴿وسنجزى الشاكرين﴾ الذين شكروا نعم الله، فلم يشغلهم شيء عن الجهاد في سبيل الله، بل كان همهم رضى الله ورسوله دون شيء سواه.

الإشارة: ينبغي للمريد أن يستغني بالله، فلا يركن إلى شيء سواه، وتكون بصيرته نافذة حتى يغيب عن الواسطة بشهود الموسوط، فإن مات شيخه لم ينقلب على عقبيه، فإن تمكن من الشهود فقد استغنى عن كل موجود، وإن لم يتمكن نظر من يكمله، فالوقوف مع الوسائط وقوف مع النعم دون شهود المنعم، فلا يكون شاكراً للمُنعم حتى لا يحجبه عنه شيء، ولما مات ـ عليه الصلاة والسلام ـ دهشت الناس، وتحيرت لوقوفهم مع شهود النعمة، إلاّ الصدِّيق؛ كان نفذ من شهود النعمة إلى شهود المُنعم، فخطب حينئذ على الناس، وقال: (مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً فإن مُحَمَّداً قَدْ مات، ومَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله فإنَّ الله حَيٌّ لاَ يَمُوتُ). ثم قرأ: ﴿وما محمد إلا رسول...﴾ إلى قوله: ﴿وسنجزى الشاكرين﴾، وهم الذين نفذوا إلى شهود المنعم، ولم يقفوا مع النعمة.

ودخل بعض العارفين على بعض الفقراء فوجده يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ قال: مات أستاذي، فقال له العارف: ولم جعلت أستاذك يموت؟ وهلا جعلته حياً لا يموت. فنبهه على نفاذ بصيرته إلى شهود المنعم دون الوقوف مع النعمة، فالشيخ الحقيقي هو الذي يغني صاحبه عنه وعن غيره، بالدلالة على ربه.

ثم صبّرهم بما وقع لغيرهم قبلهم فقال:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾